ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا ينتقل السياق من قصة إبراهيم لقصة ابن أخيه لوط ، ونلحظ أن القرآن فى الكلام عن نوح وإبراهيم ولوط بدأ الحديث بذكره أولاً ، وعادة القرآن حينما يتكلم عن الرسل يذكر القوم أولاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] ، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأعراف]

قالوا : لأن قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط لم يكُنْ لهم اسم معروف ، فذكر أنبياءهم أولاً ، أمَّا عاد وثمود ومدين فأسماء لأناس معروفين ، ولهم قرى معروفة ، فالأصل أن القوم هم المقصودون بالرسالة والهداية ؛ لذلك يُذكَرون أولاً فهم الأصل فى الرسالة ، أما الرسول فليستْ الرسالة وظيفة يجعلها الله لواحد من الناس .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت] وسمى خسيسة قومه فاحشة ؛ لذلك قال العلماء فى عقوبتها : يصير عليها ما يصير على الفاحشة من الجزاء ؛ لأن الحق سبحانه سمى الزنا فاحشة فقال ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النساء] والزنا شُرِع له الرجم ، وكذلك يكون جزاء مَنْ يفعل فعْلة قوم لوط الرجم .

وقوله : ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

لا يعنى هذا أن أحداً لم يفعلها قبلهم ، لكنها إنْ فُعلت فهى فردية ، ليست وباءً منتشراً كما فى هؤلاء .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت] دلالة على انحراف الغريزة الجنسية عندهم ، والغريزة الجنسية جعلها الله فى الإنسان لبقاء النوع ، فالحكمة منها التناسل ، والتناسل لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، حيث تستقبل الأنثى الحيوان المنوى الذكَرى الذى تحتضنه البويضة الأنثوية ، وتعلق فى جدار الرحم وتكوّن الجنين ؛ لذلك سمَّى الله تعالى المرأة حَرْثاً ؛ لأنها مكان الاستنبات ، وشَرْط فى إتيان المرأة أن يكون فى مكان الاستنبات .

لذلك ، فالجماعة الذين كانوا ينادون بتشريع للمرأة يسمح للرجل بأن يأتيها كيفما يشاء ، احتجوا بقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة]

ونقول لهؤلاء : لقد أخطأتم فى فَهْم الآية ، فالحَرْث هو الزرع المستنبت من الأرض ، فمعنى ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم حرث ، إذن : فاحتجاجهم باطل ، وبطلانه يأتى من عدم فهمهم لمعنى الحرث ، وعليه يكون المعنى ائتوهن على أىِّ وجه من الوجوه شريطة أن يكون فى مكان الحَرْث .

ولحكمة ربط الحق سبحانه بقاء النوع بالغريزة الجنسية ، وجعل لها لذة ومتّعة تفوق أيَّ لذة أخرى فى الحياة ، فمثلاً أنت ترى المنظر الجميل فتُسَرُّ به عينك ، وتسمع الصوت العَذْب فتسعد به أذنك .. إلخ فكل منافذ الإدراك لديك لها أشياء تمتعها .

لكن بأىِّ هذه الحواس تُدْرَك اللذة الجنسية ؟ وأىّ ملكة فيك تُسَرُّ منها ؟ كلُّ الحواس وكُلُّ الملكات تستمتع بها ؛ لذلك لا يستطيع الإنسان مقاومتها ، حتى قالوا : إنها اللحظة الوحيدة التى يمكن للإنسان فيها أنْ يغفل عن ربه ؛ لذلك أمرنا بعدها بالاغتسال .

ولولا أن الخالق ـ عز وجل ـ ربط مسألة بقاء النوع بهذه اللذة لَزهد فيها كثير من الناس ، لما لها من تبعات ومسئوليات ومشاكل ، لا بُدَّ منها فى تربية الأولاد .

وسبق أن ذكرنا الحكمة القائلة : « جَدَع الحلال أنفَ الغيرة » فالرجل يغَار على ابنته مثلاً ، ولا يقبل مجرد نظر الغرباء إليها ، ويثور إذا تعرَّض لها أحد ، فإذا جاءه الشاب يطرق بابه ليخطب ابنته رحَّب به ، واستقبله أهل البيت بالزغاريد وعلى الرَّحْب والسعة ، فسقوا (الشربات) وأقاموا الزينات ، فما الفرق بين الحالين ؟ فى الأولى كان دمه يغلى ، والآن تنزل كلمات الله فى عقد القران على قلبه بَرْداً وسلاماً .

أما خسيسة قوم لوط ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] فهى انحراف عن الطبيعة السَّوية لا بقاءَ فيها للنوع ، ومثلها إتيان المرأة فى غير مكان الحرث .

وقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ .. (٢٩)﴾ [العنكبوت] أى : تقطعون الطريق على بقاء النوع ؛ لأن الزنا وإنْ جاء بالولد فإنه لا يُوفر له

البقاء الكريم الشريف فى المجتمع . فالحق سبحانه جعل لبقاء النوع طريقاً واحداً ، فلا تسلك غير هذا الطريق ، لا مع رجل ولا مع امرأة .

والسبيل كلمة مطلقة وتعنى الطريق ، سواء كان الطريق المادى أى : الشارع الذى نمشى فيه أو : المعنوى وهو الطريقة التى نسير عليها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. (١٠٨) ﴾ [يوسف] أى : طريقى ومنهجى ؛ لذلك السبيل القيمى سبيل واحد ، حتى لا نتصادم ولا نتخاصم فى حركة الحياة المعنوية ، أمّا السبيل المادى فمتعدد حتى لا نتزاحم فى حركة الحياة المادية .

والسبيل المادى (الطريق) الذى نسير فيه يُعَدُّ سمة الحضارة فى أى أمة ، ونذكر أن هتلر قبل أن يدخل الحرب سنة ١٩٣٩ جعل كل همّه فى إنشاء شبكة من الطرق ؛ لأن حركة الحرب غير العادية تحتاج إلى طرق إضافية أيام الحرب ، ومن ذلك مثلاً الطريق الذى يُسمُّونه طريق المعاهدة ، أى معاهدة سنة ١٩٣٦ .

إذن : كلما وُجدت حركة زائدة احتاجت إلى طرق إضافية ، وهذه الطرق تتناسب والمكان الذى تنشأ فيه ، فالطرق فى المدن نُسمِّيها شوارع وفى الخلاء نسميها طرقاً تناسب المساحة داخل المبانى ، ومنها تتفرع الحارات ، وهى أقل منها ، ومن الحارة تتفرع العَطْفة ، وهى أقل من الحارة ، وكلما ازدحمتْ البلاد لجأ الناس إلى توسيع نظام الحركة لتيسير مصالح الناس .

كما نرى فى القاهرة مثلاً من أنفاق وكَبَارِ ، حتى لا تُعاق الحركة ، وحتى نوفر للناس انسيابية فيها .

والأنفاق أنسب للجمال فى المدن ، والكبارى أجمل فى الفضاء ، حيث ترى مع ارتفاع الكبارى آفاقاً أوسع ومناظر أجمل ، أما إنْ حدث

عكس ذلك فأنشئت الكبارى داخل الشوارع فإنها تُقلِّل من جمال المكان وتُحوِّل الشارع إلى أشبه ما يكون بعنابر الورش ، كما أنها تؤذى سكان العمارات المجاورة لها .

وعلى الدولة أن تراعى هذه الأمور عند التخطيط ، ألم نقرأ قوله تعالى : ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ [عبس] لا بُدَّ أن نُيسِّر السبل للسالكين ؛ لأن معايش الناس وحركتهم تعتمد على الحركة فى هذه الطرق .

فقوله تعالى : ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ.. ۝٢٩﴾ [العنكبوت] فكان من قوم لوط قُطَّاع طرق كالذين يخرجون على الناس فى أسفارهم وحركتهم ، فيأخذون أموالهم وينهبون ما معهم ، وإنْ تأبوا عليهم قتلوهم . وبعد أن قطعوا السبيل على الناس قطعوا السبيل على بقاء النوع[1] .

يقول سبحانه فى حقهم : ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ.. ۝٢٩﴾ [العنكبوت] فكانوا لا يتورعون عن فعْل القبيح وقوله فيجلسون فى الطرقات يستهزئون بالمارة ويؤذونهم كالذين يجلسون الآن على المقاهى ويتسكعون فى الطرق ويؤذون خَلْق الله ، ويتجاهرون بالقبيح من القول والفعل ، فلا يسلَم من إيذائهم أحد .

لذلك يعلمنا النبى ﷺ آداب الطريق ، فيقول لمن سأله :

---

(١) قيل فى معنى ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ.. ۝٢٩﴾ [العنكبوت] ثلاثة أقوال :
- كانوا قطاع الطريق . قاله ابن زيد .
- كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة . حكاه ابن شجرة .
- إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال . قاله وهب بن منبه . أى : استغنوا بالرجال عن النساء .

قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٢٣٠) بعد ذكر هذه الأقوال : « ولعلَّ الجميع كان فيهم ، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة . ويستغنون عن النساء بذلك » .

وما حَقُّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام»[١] .

وقد انتشر بين قوم لوط سوء الأخلاق ، بحيث لا ينهى بعضهم بعضاً ، كما قال سبحانه عن اليهود أنهم : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة]

والنادى : مكان تجمُّع القوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [العلق] أى : مكان تجمُّع رؤوس القوم وكبارهم ، كما نرى الآن : نادى كذا ، ونادى كذا . والنادى وهو مكان عام يُعَدُّ المرحلة الأخيرة لانضباط السلوك الذى يجب أن يكون فى المجتمع ، فأنت مثلاً لك حجرة فى بيتك خاصة بك ، ولك فيها انضباط خاص بنفسك ، وكذلك فى صالة البيت لك انضباط أوسع ، وفى الشارع لك انضباط أوسع .

والانضباط يتناسب مع الواقع الذى تعيشه ، فحين تكون مثلاً بين أناس لا يعرفونك لا يكون انضباطك بنفس الدرجة التى تحرص عليها بين مَنْ تعرفهم كالموظف فى مكتبه ، والطالب فى مدرسته .

إذن : فهؤلاء القوم قطعوا السبيل فى بقاء النوع ، حيث أتوا غير مَأْتِيٍّ وانحرفوا عن الفطرة السَّوية ، وقطعوا السبيل المادى ، فأخافوا الناس وروَّعوهم ونهبوا أموالهم ، وأخذوهم من الطرق بغرض هذه الفعْلة النكراء ، ثم كانوا يتبجحون بأفعالهم هذه ، ويجاهرون بها فى أنديتهم وأماكن تجمعاتهم .

فبماذا أجابه القوم ؟

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٦٥) ، (٦٢٢٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٢١) كتاب السلام ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦ ، ٤٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت] أى : من الصادقين فى أنك مُبلِّغ عن الله ، فنحن من العاصين ، وأرنا العذاب الذى تتوعدنا به ، وقولهم ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] مع أن العذاب شيء مؤلم ، ولا يطلب أحد إيلام نفسه ، فهذا دليل على عدم فهمهم لهذا الكلام ، وأنهم غير متأكدين من صدقه ، وإلا لو وثقوا بصدقه ما طلبوا العذاب .

وفى موضع آخر ، حكى القرآن عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل]

إذن : حدث منهم موقفان وجوابان : الأول ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] فلما لم يُجبهم إلى هذا الطلب الأحمق ، وظل يتابع دعوته لهم ، فلم ييأس منهم لجأوا إلى حيلة أخرى ، فقالوا ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] والعلة ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] لأن الطُّهْر فى نظر هؤلاء عيب ، والاستقامة جريمة ، وهذا دليل على فساد عقولهم ، وفساد قياسهم فى الحكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾

وفَرْق بين الفاسد فى ذاته والمفسد لغيره ، فيا ليتهم كانوا فاسدين فى أنفسهم ، إنما كانوا فاسدين مفسدين ، يتعدَّى فسادهم إلى غيرهم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى
قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾

جاء هنا إبراهيم - عليه السلام - فى سياق قصة لوط ، كما جاء لوط فى سياق قصة إبراهيم . ومعنى ﴿رُسُلُنَا .. (٣١)﴾ [العنكبوت] أى : من الملائكة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .. (٧٥)﴾ [الحج]

وقد جاءت الملائكة لإبراهيم بالبشرى ، ولم يذكر مضمون البُشْرى هنا ، وهو البشارة بإسحق ويعقوب وذرية صالحة منهما ، وجاءته بإنذار بأن الله سيُهلك أهل هذه القرية ، وبالبشرى والإنذار يحدث التوازن ؛ لأننا نُبشِّر إبراهيم بذرية صالحة مُصْلحة فى الكون ، ونهلك أهل القرية الذين انحرفوا عن منهج الله .

وتلحظ فى الآية أنها لم تذكر العلة فى البُشْرى فلم تقل لأنه كان مؤمناً ومجاهداً وعادلاً ، إنما ذكرت العلة فى إهلاك أهل القرية ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١)﴾ [العنكبوت] لماذا ؟ لأن المتفضّل لا يمنُّ بفضله على أنه عمل بمقابل ، لكن المعذب يبين سبب العذاب .

فماذا كان الانفعال الأوليّ عند إبراهيم - عليه السلام - ساعة سمع البُشْرى والإنذار ؟ لم يسأل عن البشرى ، مع أنه كان متلهفاً عليها ، إنما شغلته مسألة إهلاك القرية ، وفيها ابن أخيه لوط . لذلك قال :

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ (١) كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾

---

(١) قال الضحاك : كانت تسمى هيشفع . ومُسخت حجراً . قاله الضحاك فيما أخرجه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ١٢٠] .

فلم يستشـرف إبراهيم للبشرى ، واهتم بمسـألة إهلاك قرية قوم لوط ؛ لأن فيها لوطاً مما يدلُّ على أن الإنسـان لا يشغله الخير لنفسه عن الشر لـغيره ، وهنا ردَّ المـلائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِـيهَا .. (٣٢)﴾ [العنكبوت] فهذه مسألة لا تخفى علينا .

ثم يُطمـئنونه على ابن أخيـه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٣٢)﴾ [العنكبـوت] وأهله : تشـمل كل الأهل ؛ لذلك استـثنوا منهم ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَـانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت]

والغابرون : جمع غابر ، ولها استـعمالان في اللغة : نقول : الزمان الغابر أي المـاضي ، وغابر بمعنى بـاقٍ أيضاً ، فهي إذن تحـمل المعنى وضده ؛ ذلك لأنهم جـاءوا لإهلاك هذه القرية ، وامرأة لوط باقيـة لتهلك معهم ، وتذهب مع مَنْ سيذهبون بالإهلاك ، فهي إذن باقية في العذاب . فجاءت الكلمة ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت] لتؤدي هذين المعنيين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

شهد إبراهيم هذا الموقف مع لوط ، وعلم سـبب حضورهم إليه ، لكن لمـاذا سيء بهم ، مع أنهم رسل الله مـلائكة جـاءوه على أحـسن صورة ؟ قالوا : لأن الملك يأتي على أجمل صورة ، حتى إذا أردنا أن نمدح شـخصاً بالجـمال نقول : مـثل الملاك ، ومن ذلك قـول النسوة

لامرأة العزيز عن يوسف عليه السلام : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف]

فلما رآهم لوط على هذه الصورة خاف عليهم ، بدل أنْ يفرح بمرآهم الجميل ؛ لأن قومه قوم سوء وأهل رذيلة ، ولا بُدَّ أنْ ينالوا ضيوفه بسوء ؛ لذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] أى : أصابه السوء بسببهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] الذرع هو طول الذراعين ، فنقول : فلان باعُه طويل . يعنى : يتناول الأشياء بسهولة ؛ لأن يده طويلة ، فالمعنى : ضاق بهم ذَرْعاً . يعنى : لم يتسع جهده لحمايتهم من القوم .

ونلحظ هنا اختلاف السياق بين الآيتين : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ .. (٣١)﴾ [العنكبوت] أما فى لوط فقال : ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] لأنهم تأخروا بعض الشىء عند إبراهيم عليه السلام .

فلما أن أصابه السوء بمرآهم ، بدل أنْ يسعد بهم ، وخاف عليهم طمأنوه ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] لا تخفْ علينا من هؤلاء الأراذل ، فلسنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئْنا إلا لنريحك منهم ، ونقطع جذور هذه الفعْلة الخبيثة ، وسوف ننجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ .. (٣٣)﴾ [العنكبوت] فكثيراً ما ضايقته ، وأفشتْ أسراره ، ودلَّتْ القوم على ضيوفه ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

لكن ، ما الطريقة التى ستقضون بها على هؤلاء القوم ؟

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ[1] رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

الرجز : العذاب ينزل عليهم من السماء ، والحجارة التى يمطرهم الله بها ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بسبب فِسْقهم وخروجهم عن منهج الله .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لأن هذا العذاب استأصلهم ، وقضى عليهم ، وجعلهم عبرة لكل عاقل متأمل وآية فى الكون لكل عابر بها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] إذن : فالعبرة باقية بأهل سَدُوم كلما مر الناس بقُراهم .

لذلك قال الله عنها ﴿ آيَةً بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] الآية : الشىء العجيب الذى يدعو للتأمل ﴿ بَيِّنَةً .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] واضحة كدليل باقٍ ، وظاهر لا يخفى على أحد ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : يبحثون ويتأملون بسبب ما حاق بهذه القرى ، وما نزل بها من عذاب الله .

---

(١) هى قرية سدوم قرية قوم لوط . على الطريق بين المدينة المنورة والشام . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٢٠/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] فصارت مدين علَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفي للرسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصْلح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٢/٢٢١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شيء أمر به شعيب قومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول فى هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦) ﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التى جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هى إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التى انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ فى بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن فى الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى فى زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقى .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذى قعد عن العمل والسعى ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذى أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات فى الدنيا لننال النعيم الباقى فى الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما فى الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان في العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذى يجعل الإنسانَ يتمادى فى المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد فى الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع فى المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا فى الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء فى قوله ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إنى رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعني : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق - عز وجل - أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجرى بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتي بالطمى فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمى آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسَد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعانى آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البِكْر التى ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (١) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) الرجفة في القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهى رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وأرجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب - مادة : رجف] .

فلماذا يُكذِّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعدُّون التاج لعبد الله بن أبى ، لينصبوه ملكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. ﴿٣٦﴾** ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾** ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشىء وقع أنه لم يقع ، أو لشىء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقع له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتى إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتى بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقـول : زيد مجتهد دارتْ فى ذهنى هذه المـسألة ، وكان فى الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسـبة كلامية ، ونسبة واقـعية ، فإنْ وُجدت الـنسبـة الواقعـية قـبل الذهنية والكلامـية ، فـالكلام هنا خـبر يُوصَف بالصدق أو يُوصَف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعـية لا تأتى نتيجة النسبة الكلامـية ، إنما حين تقول : قف فتأتى النسـبة الواقعية نتيجة النسبـة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبى الله شعيـب نجده عبارة عن أمرين : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد : ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبـوت] والأمر والنهى مـن الإنشاء الذى لا يُوصَف بالصّدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧) ﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملكَة العربية التى يفهمـون بها كلام الله . فالحق سبحانه قـال هنا ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧) ﴾ [العنكبـوت] لأنه أمـرهم بعـبـادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمـرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليـهم ، واليوم الآخـر كائن لا مـحالة فارجوه ، والإفساد فى الأرض مُحرم .

إذن : فالمـعنى يحمل مـعنى الخبـر ، فالأمران هنا ، والـنهى أمر واجب فكذَّبوه لعلّة الأمرين ، ولعلّة النهى .

ومعنى ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة فى الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهى شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهى واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

كما لو أنكَ استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيته أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْلٌ منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْلٌ من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »(١) .

والنهى فى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادىء الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلَّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشىء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فى أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة فى وسائل النقل لو قارنا نفعها بضـررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسـائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكـر عندمـا جئنا إلـى مصـر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ وجـدنا فى الميادين العامـة مواقفَ للحمير ، مثل مـواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسـيلة الوحـيـدة للانتـقال ، ويكفـى أن رَوَثَ الحمـار يُخـصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل مـحمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحـمل السيف ضد الكفار ، إنمـا إنْ كذَّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسـرائيل لما طلبـوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿ **هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لـنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنـه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٣٧) ﴾ [العنكبوت] وهذا عـقاب الله ؛ لأنه كـان سبـحانه يتـولّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
- قوم ثمود . (سورة هود ـ آية : ٦٧) . (سورة القمر ـ آية : ٣١) .
- قوم لوط . (سورة الحجر ـ آية ٧٣) .
- قوم شعيب . (سورة هود ـ آية ٩٤) .

إلى عمله ، ويقضى مصالحه ، فقال له الوالد : ابن فلان استيقظ مبكراً ، فوجد محفظة بها مائة جنيه ، فقال الولد - وكان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتقل بنا الآيات إلى لقطات أخرى موجزة من مواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

نلحظ فى هذه البرقيات السريعة أنها تذكر المقدمة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[1] .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لما نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية استطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كثير من الآثار لهذه القرى عاد وثمود والأحقاف[1] ، واقرأ

---

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٤١٣/٣] .